

## هوامش ضد نحوية

مرت بنا هيفاء مجدولة  
تركية تنحى لتركسي  
نزو بطرف فائق فاتر  
اضعف من حجة نحوي  
ابن فارس اللغوي

لكل لغة معضلاتها ووسائلها لحل هذه المعضلات. وفي كل لغة اشكال من القصور عن الاستجابة الكاملة للمحاجات المستجدة، بحكم التفاوت بين طور النشأة والاطوار اللاحقة، فاللغة تظهر في بيئة زمكانية معينة فتعكس محتويات هذه البيئة وتتحدد بمقتضياتها، ثم تنتقل، مع استمرارها في الوجود، الى بيئات اخرى قد تختلف كثيرا او قليلا عن بيئة النشأة فتواجه امتحان الوفاء بالتعبير عن المستجدات التي لم تعهدها من قبل. ويفرض هذا التحدي على أهل اللغة استثمار طاقاتها الداخلية الى الحدود القصوى باستخدام ادوات الاستخراج المعروفة وهي : الاشتقاق، النحت والتركيب، التوليد، والاقْتِباس من اللغات الاخرى، المسمى في العربية : التعريب.

في اثناء هذا التنقل في البيئات الزمكانية المختلفة تواجه اللغة حالة الانقسام بين المحكي والمكتوب، هو ما اصطلاحنا عليه بالعامية والفصحى. ويرجع هذا الاختلاف في اصله الى اختلاف المجال والغرض اللذين تستعمل بهما اللغة، فالمكتوب يختص عادة بالتعبير عن الفكر، أي الوعي المتقدم للانسان. والمحكي عن الحياة اليومية، اي عن الوعي العادي — العفوي — غير المرتبط بمستوى معين من الثقافة المتحركة. وكان هذا الانقسام في العصور الماضية اشد منه في العصر الحاضر، وذلك لاسباب منها : ضيق رقعة الثقافة في المجتمعات القديمة، ضعف وسائل الاتصال بين المجتمعات او اجزائها، نتيجة لتخلف وسائل المواصلات، ومحدودية وسائل النشر والبيث. وقد ادت هذه العوامل في مجملتها الى نشوء اللهجات من اللغة المحكية. ومن المعروف عند علماء اللغة ان المحكي يتغير بوتيرة اسرع من المكتوب، ولذلك تظهر اللهجات من المحكي لا من المكتوب، لان الاخير يحافظ على وحدته بتأثير ارتباطه المباشر باسس اللغة الام وقواعدها من جهة، وكونه من جهة اخرى انعكاسا للوعي المثقف الاقل خضوعا للضرورة من الوعي العادي.

ان هذا هو السبب في ان العصر الحديث لن يشهد تكون لغات جديدة تنفرغ من اللهجات، وذلك بالنظر لاتساع رقعة المکتوب على حساب الخكي، وانتشار الثقافة، ولأنه يسير نحو التقنين والسيطرة على السيرورة العفوية للتاريخ، هذا فضلا عن انصرام مرحلة نشوء القوميات، المساق لتشوء اللغات الجديدة، وسيشهد العصر على العكس من ذلك — وهو يشهد منذ الآن — تقليصاً للهجات بادماجها وتذويبها في اللغة الام، المكتوبة، وعلى المدى البعيد : تقليصا للغات يتماشى مع الاتجاه العالمي نحو التقارب والتوحيد، والخلص من مشكلة تبليل اللسان.. ويطمح الماركسيون الى لغة مشتركة ستعم الدنيا في الاطوار الاخيرة من المجتمع الشيوعي، المنشود بناؤه على نطاق عالمي.

تتيح لنا هذه الحقائق في جملتها مشروعية المزاجية بين العامية والفصحى من جهة، والعمل على حل مشكلات اللغة بحرية اكبر تتجاوز قيود فقهاؤها وتعكماهم الراهية من جهة اخرى. وسيفرض علينا ذلك:

### أولا عدم التمسك الجامد بقواعد النحو

ثانيا احترام العامية والاستفادة منها في إغناء اللغة المكتوبة، مع السعي في نفس الوقت الى تطوير العاميات وتقريبها من الفصحى بعد تيسير الاخيرة وتحريها من فروض النحاة، وثالثاً استئثار طاقة اللغة العربية الى الحدود القصوى بعيدا عن ارباب فقهاؤها، ويقتضينا ذلك عدم الاكتفاء بالاشتقاق لاستخراج المفردات والمصطلحات الجديدة وانما التوسع في النحت والتركيب، والتوليد، والتعريب.

كنت قد تحدثت عن هوم مماثلة في «مواقف» — الحدائث في اللغة عدد 25 — واعطى هنا، في «الثقافة الجديدة»، امثلة ووقائع برنامجية للمطالب المنشودة املا ان تساعد في اضاءة اصول التعامل مع اللغة وتفتح للكتاب بعض الابواب التي اوصدها النحاة في وجوههم..

سعى اللغويون القدماء والمحدثون الى تصنيف حرية استعمال اللغة واستحدثوا في غضون ذلك قيودا لم يلتزمها العرب انفسهم قبل نشوء النحو وقد تغافلوا في نفس الوقت عن مبدأ التطور ومستلزماته فسبحوا قواعدهم النحوية والصرفية بأسوار صلدة يصعب اختراقها.. ورغم ان زملاءهم فقهاء الشريعة قد اهتموا كثيرا بالرخص ومالوا الى التساهل في امور عديدة، لا سيما في اوانات التصح التي شهدت ظهور الفقهاء الكبار، فان فقهاء اللغة اداروا ظهورهم للمرونة التي استخدمت بها اللغة قبل ظهور النحو، فلم يعتدوا بالنصوص الخارجة عن قواعدهم وانما اولوها لتتسجم مع تلك القواعد، أو وضعوها على ملاك الشذوذ الذي لا يصح ان يصاغ في قاعدة، وأورد هاهنا جملة امور :

الخروج على الاعراب في القرآن : وقد ذهبوا في تأويله مذاهب شتى، وكانهم تحمسوا فيه لحناً فتحاشوا الاعتراف به واثموا له المعاذير، ومؤخراً تحمراً لغوي شاب فصرح ان الموارد التي خرج فيها القرآن على الاعراب هي لحن حقيقي، لكنه ليس ناتجاً عن سوء استخدام اللغة أو عدم المعرفة بها، بل هو حالة مرتبطة بأصل قبحوي يفيد أن الاعراب وجد لا يوضح المعنى وصيانتها من اللبس. فاذا توفر الامن من الالتباس دون الاعراب جاز إهماله. (انظر : د. تمام حسان — القرائن النحوية واطراح العامل والاعرابين التقديري والمجلى — مجلة اللسان العربي 11 ج 1 / 1971).

ومن تطبيقات هذه القاعدة في النصوص :

قول منسوب لامرئ القيس يستشهد به النحاة انفسهم:

«قال يوم اشرب» غير مستحب إنما من الله ولا واغل

وقد أهمل اعراب المضارع المرفوع وجعله ساكناً. وأود التنبية على مدى غفلة النحاة وعدم تدقيقهم فهم يتداولون هذا البيت لامرئ القيس دون ان يثير انتباههم ما فيه من نفس إسلامي يؤكد أنه منحول.

وبيت لحسان بن ثابت :

فجعلتني غرض اللام فكلهم يرمي بلؤمه بالغاً كمقصر

والشاهد هنا هو تسكين الهاء بدلاً من كسره وهو اعرابه كضمير مبني على الكسر.

ومن آثار المحدثين قول ابو نواس :

الا أيها القاضي الذي عم عدله فاضحى به في العالمين فريدا

قرأت كتاب الله تسعين مرة قلم ار فيه للشراب حدودا

فان شئت أن تهلمه فدونك منكياً صبوراً على رب الزمان جليدا

وقد سكن ابو نواس فعل المضارع المنصوب بأن

ومن الشواهد المتأخرة هذا البيت للسراج الحميري، وقد وجدته في اوراق مخطوطة بمكتبة

الامبروسيانا في ميلانو :

يا سائلني عن بنات نعش وطالمها في اشهر الروم هاك اسمع معانيها

فهنا سكن القائل «بنات» التي يجب ان تكون مكسورة، وكأنه اعتبرها مع «نعش» كلمة واحدة على سبيل الاصطلاح وبمعناها هذا الشاهد مثالا على التركيب في صياغة المصطلحات وستحدث عنه فيما بعد.

وقد تساهل القدماء في اعراب «ابو» فتركوها في حالة رفع دون اعتبار لموقعها في الجملة وكان ابو حنيفة يلتزم ذلك كما روى عنه الخطيب البغدادي، كما التزمها الشافعي في مواضع من «الرسالة» كقوله : اخبرنا سفيان عن سالم ابو النصر — انظر ص 89 من طبعة احمد محمد شاكر.. وقد تعودوا ان يقولوا علي بن ابو طالب ومعاوية بن ابو سفيان ويذكر الاصمعي ان فريش كانت لا تعرب «ابو» كما نعربها الآن.

وللشافعي في «الرسالة» مخالفات لقواعد النحو رتبها احمد محمد شاكر في فهرس وقال ان لكل منها وجهاً في العربية. وبغض النظر عن ذلك فان الشافعي تصرف هنا في تعارض مشهود مع النحاة. ومن هذه :

— عدم حذف ياء المنقوص التكرة . كقوله :

فرق النبي عمالا على نواحي — ص 415

ولم يقل : نواح :

— تذكير وتأنيت العدد من دون التقييد بجنس المحدود. وهنا قوله :

ان صوم الثلاثة في الحج والسيح في المرجع عشرة ايام كاملة — ص 26  
هنا قال «السيح» وكان يجب ان يقول : «السبعة».

— حذف أن المصدرية كقوله :

عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها — ص 49

بدلاً من : عليه ان يتعلم وهو تعبير عامي يستخدمه الشافعي فيعطي مثالا على امكان الدمج بين العامية والفصحى. ومن هذا القبيل ايضا ايراده عبارة لابن عباس جواباً على اعتراض حول احدى فتاواه :

«إمّا لى فاسأل فلانة ..... ص 44

أي ان لم تصدق فاسأل فلانة وأصلها : «إمّا لا» فأمال الالف على طريقة العوام.

\* \* \*

من ادوات الاستخراج الهامة التي وجدت في العربية وحرماها اللغويون : النحت والتركيب. وقد استخدمها الجاهليون لحل مشكلات النسبة الى الاسماء المضافة، مثل عبد الدار وعبد القيس وعبد شمس فقالوا : عبد ري وعقبسي وعشمسي، وللنحت جذور ابعث في العربية، فقد رجح بعض اللغويين القدماء ان كل مفردة رباعية او خماسية هي من اصلين منحوتين. ومن امثلته : دحرج قالوا انها نحت من : دحر وخرج او حرج. وقال الخليل الفراهيدي ان ليس منحوتة من لا ايس وهو تخريج معقول لان الليس ضد اليس وهو الوجود. وهذه كلمة مشتركة مع

اللغات الهندوربية التي تستعمل الفاظاً مقاربة لفعل الكينونة. وقد استخدم المسلمون النحت لنفس الغرض فقالوا في النسبة الى ماء الورد : **هاوردي**، وإلى دار القطن — **علة** **بيغداد** — **دار قطني** وإلى رأس العين — في مصر — **رسني**. وتتضمن الأخيرة اختزالاً شديداً حذف فيه ال التعريف والهمزة والياء ومن هذا القبيل قولهم في النسبة الى ابو هاشم : **بهشمي**. و**ابو هاشم** من رؤوس المعتزلة وله مدرسة عرفت باسم **البهشمية**.

ومع ازدياد الحاجة الى النحت ينبغي التوسع فيه، لأن القدماء استخدموه في حدود الحاجة ولا عبرة بما يقوله النحاة ان العرب لم يتوسعوا فيه فيجب ان لا تتوسع، ما داموا قد استخدموه في المواضع التي تستدعيه، وما دام قد وجد في اصل اللغة وقام بدوره في صياغة مفردات جديدة. ويجب على الكتاب المعاصرين عدم الالتفات الى اقوال النحاة أو مراعاة امرجتهم العقائدية، وان يتقيدوا بالحاجة المتزايدة الى استخدام هذه الاداة المهمة.

لقد ظهرت في هذه الحقبة من تاريخنا الحديث نحوت وتركيبات فرضت نفسها على الجميع. فصرنا نقرأ : **برماني**، **كهرو مغناطيسي**، **بتروكيميائي** ... الخ ثم صار الكتاب يقولون : **فروسطي** للقرون الوسطى و**شرق أوسطي** للشرق الأوسط وقال بعضهم **شمال افريقي**، و**قبتاريخي** اي ما قبل التاريخ.. وظهر مؤخراً اصطلاح : **اجتصادي** نحت كمال ابو ديب مقابل **Socio-économic** وارجو ان يتعمم لأنه ادق وأخصر من **المصطلح الاجنبي**، واللغة العربية تتقبل مثل هذه النحوت كما تتقبل التركيب. وعلى هذا الفرار يمكن ان نقول مثلاً : **اورو امريكي** بدلاً من **اوربي** — **امريكي**، **اورو شيوعي** بدلاً من **شيوعية اوربية**، **قبلاسي** بدلاً من : ما قبل الاسلام، **قبيلادي** بدلاً من : ما قبل الميلاد، وهذه البادئة استخدمها الكاتب العراقي عبد الحق فاضل منذ الستينات لكنها لم تتعمم حتى الآن خوفاً من فقهاء اللغة، ولدينا بالمناسبة مفردات عديدة تصلح ان تكون بوادئاً لتركيب ونحت المصطلحات، منها : **تحت**، **فوق**، **غير**، **لا**، **عدم**، **بعد**، **شبه**، **ضد**، **وحرف الزاي** للإزالة، وقد استخدمته البعلبكي في المورد مقابلاً للبادئة الانكليزية **De**. واعطى لذلك بعض التطبيقات:

**تَحْتُ** — **جلدي**. استخدمه البعلبكي باضافة ياء الى **تحت** فقال : **تحتي** — **جلدي**، تجنباً لإثارة النحاة بتحريك الحاء وتسكين التاء من **تحت**، وتعاقب اليائين في الاصطلاح يمنع من صيرورة مقطعين كلمة واحدة فمن الأفضل الاكتفاء بالتركيب على النحو الذي اثبتته. **فوق طبيعي**. جعله البعلبكي : **فوطيبي** واخشى ان يكون ملتبساً ولذلك فانا افضل التركيب دون النحت هنا.

الغير فاعل هو اسهل من غير الفاعل لانه يدمج البادئة في الكلمة فيجعلها مفردة واحدة. لا متناهي وهو معروف وشائع.

٦ بَعْدَ — فلاني، بدلا من : ما بعد فلان، لتسمية العصر — او المجتمعات. ومثاله : الصين  
 البعد ماوية، العراق البعد قاسمي، مصر البعد ناصرية... الخ. وان كنت لا ارى استبعاد : ما  
 بعد نهائيا فربما استدعاها السياق وكانت اسوغ كأن نقول : صين ما بعد ماو وعراق ما بعد  
 قاسم ومصر ما بعد ناصر والامر متروك لاختيار الكاتب وتقديره.

شبه بشري او بشرائي، مقابل ANTHROPOID.

ضد حيوي، بدلا من مضاد للحوية.

زملحة : ازالة الملوحة هو من وضع العلبكي.

ومن استعمالات النحت والتركيب في غير النسبة :

— البيوكيمياء . بدلا من الكيمياء الحيوية، وقد رأيتهم في دمشق يكتبون على مختبراتهم :

تحاليل كيميائية حيوية، دموية، جراثومية، مما يوهم القارئ ان هناك صنفين من التحليل :

كيميائي وحيوي، ولو قالوا : تحاليل بيوكيميائية لكانوا منطقيين اكثر.

— الكهروطيس : بدلا من المغناطيس الكهربائي او الكهرياء المغناطيسية

— البترو دولار : هو شائع الآن.

— الكهرو كيمياء : بدلا من الكيمياء الكهربائية.

\* \* \*

منع النحاة من اضافة ال الى الفعل او معاملته معاملة الاسم على سبيل الاصطلاح. وقد

اعتبر الجوهري قول القائل :

يقول الخنا وابغض العجم ناطقا الى رنا صوت الحمار اليجدغ

من الضرورات القبيحة في الشعر، لكن ال هنا لا تدل حصراً على التعريف وانما هي تفيد

في نفس الوقت معنى «الذي» ونحن نقول في العامة : يكتب الذهب يرجع بمعنى :

الذي يكتب والذي يذهب والذي يرجع.. وقد استعملا في هذا المعنى الفيروزآبادي في

ديباجة القاموس فقال :

«وانت ايها اليلمع العروف»

من دون ان تملها عليه ضرورة شعرية لانه يكتب نقرأ

وقد يرد الفعل في صيغة اسم نكرة، ومن قول اعرابي متسول يشم الاغنياء :

رب عجوز عرسي زبون سريعة الرد على المسكين

تحسب ان «بوركا» تكفيني اذا غلوت باسطا عيني

يقصد قولها : بورك فيك، حين ترهد طرده.

ومن هنا ينبغي تجويز صياغة الاصطلاح من الفعل ومعاملته كإسم. مثل قولنا :  
بصدأً للمحدث القابل للصدأ ويمكن تعريفه عن هذا الشكل:

الحديد الصدأ. وفي حالة النفي : الحديد اللا يصدأ أو المايصدأ وهذه الصيغة تقرب  
الفصيح من العامي. هو ما لا ينبغي ان نستكف منه كما يفعل النحاة.

\* \* \*

التوليد باب هام في الاستخراج اللغوي وهو يعني استحداث معنى جديد لمفردة قديمة له  
صلة قريبة أو بعيدة بمعناها الأصلي، يكون ذلك عن سبيل المجاز. ومن المعروف ان معظم  
المصطلحات التي استحدثها الاسلام كانت بالتوليد مثل : الصلاة، الزكاة، الحج، الفقه،  
الخراج، الفقه، الحد، الآية، والسورة... الخ. واعتمدت الفنون الادبية والعلمية على التوليد؛  
فمصطلحات عروض الخليل معظمها مولد، وكذلك مصطلحات اللغويين بما فهم النحاة  
والمؤرخين\* والمتكلمين والفلاسفة.. ويحفظ التوليد حالياً بأهميته السالفة، وهو معتمد في  
اللغات اجنبية كما في العربية لاستخراج المصطلحات الجديدة. ان الكثير من المصطلحات  
العلمية والفنية الشائعة في الانكليزية وغيرها، والمنتشر بعضها عالمياً، هي مفردات مولدة —  
ومثالها : (Knob) معناها الأصلي : عَجْرَةٌ وهي العقدة في الفصن، وتطلق الآن على الزر  
الكهربائي والقرينة بعيدة جداً وهي كون الزر نائماً والعَجْرَةٌ نائمة كذلك. وكلمة «هيولى»  
يونانية معناها الأصلي «خشب» ثم أطلقها فلاسفة اليونان على المادة وقرينتها ان الخشب احد  
الاشكال المشهورة والمتوفرة للمادة فسميت بذلك التعليل، ويلاحظ هنا ان «مادة» اصطلاح  
متأخر عن ظهور اللغة لانه «مدرك عقلي» ولذلك لم توضع له مفردة مستقلة في اصل  
اللغات التي تبدأ عادة في يقات غير متقدمة فكربا ومن هنا ولد الانكليز المادة Matter وهي  
في الاصل امر أو موضوع او مسألة والقرينة ان المادة حقيقة بشار اليها ويبحث عنها. والكثير  
من التوليد يعتمد على قرائن ضعيفة الجأت اليها الحاجة الملحة للتعبير عن مستجدات الأطوار  
اللاحقة لطور النشأة. وربما ولدت كلمة في اصل لا علاقة له به البتة، ومثاله : Broker تطلق  
اليوم عن سمسار الأسهم والسندات وهي في الاصل فاتح قوارير الخمر.

وقد استخدم التوليد في العربية الحديثة واقره اللغويون، ومن امثلته الهاتف للتلفون وقرينته ان  
اسم الصوت المنبعث من التلفون يشبه الهاتف وهو صوت يسمع دون أن يرى صاحبه. وهي  
قرينة بعيدة لا تعبر عن طبيعة التلفون. مع ملاحظة ان اسم التلفون هو الآخر يعبر عن طبيعته  
فهو مكون من مقطعين يونانيين tele ومعناه من بعيد، وphone وهو الصوت. والمقصود :  
الصوت القادم من بعيد. لكن هذا الصوت لا يقتصر على التلفون فهو يأتي ايضا باللاسلكي  
والمذياع والتلفزيون، ومن الموالات البعيدة القرينة : القنبلة واصلها «قنبرة» سميت بذلك لانها  
تنبش الأرض كالقنبرة ويبدو أنها حرفت الى قنبلة لسهولة اللفظ، والقنبلة في العربية هي جماعة

الخيل. ومن المولد : «البندقية» وقرينتها قريبة لانها في الاصل آلة صيد ترمي البندق وما في حكمه من المقذوفات. وكانت معروفة في العصور الاسلامية.

والتوليد باب واسع يمكن الاستفادة منه في تكوين المفردات الجديدة. واكثر الكلمات صلاحاً لهذا الغرض هي الكلمات المهجورة والميتة لان معناها الاصيلي غير معروف فاذا اطلقت على شيء حديث اقترنت به في الالذهان على سبيل الانفراد وعدم الاشتراك. ومن امثلة ذلك قطار معناه الاصيل رتل الابل وهو غير متداول فلما سميت به آلة النقل الحديثة التي تسير على الحديد انحصر مدلوله فيها. وهذا هو ايضا شأن السكة، وهي في الاصل : الطريق لكنها غير شائعة بهذا المعنى وإنما عرفت كاسم للطريق الحديدي الذي يسير عليه القطار، واذكر اني كنت اقرأ، وأنا في المدرسة المتوسطة، كتابا في التاريخ فمرت بي عبارة في مجرى الحديث عن حركة زيد بن علي في الكوفة، وفيها يتكلم المؤرخ عن القتال الذي جرى في «سكك الكوفة» بين أهل الكوفة وجنود اهل الشام، فالتبس علي الامر وتساءلت في نفسي عما اذا كان يوجد قطار في ايام زيد بن علي !

ان المعجم العربي يكفل تزويدنا بالعديد من المفردات القابلة للتوليد وذلك بفضل اتساعه وثرائه، وينبغي ان لا نمتنعنا من استخراج المفردة غرابتها وكونها غير مفهومة في البدء، لأن الاستعمال سيحدد لها معناها ويجعلها مألوفة، وكل اصطلاح جديد يبدأ غريباً ثم يألفه الناس بالتكرار.

• • •

يلح الحاجة على الفرق بين الضاد والظاء رغم صعوبة التفريق الناشئة عن تقارب اللفظين. وقد حاول بعضهم وضع معايير لذلك، كالصاحب بن عباد الذي نشرت له رسالة عن (الفرق بين الضاد والظاء) لكنه فشل كما فشل غيره في وضع معيار عملي دقيق. ولم تكن ثمة حاجة الى هذا العناء لولا التزمتم الذي يتجلبب به فقهاء اللغة. فالعرب لم يكونوا معنيين بهذا التفريق مثلما عني به النحاة فيما بعد. وقد نقل ابن خلكان في (وفيات الاعيان) عن ابن الاعرابي، احد أئمة اللغة في القرن الثاني للهجرة كلاماً جاء فيه :

«جائز في كلام العرب ان يعاقبوا بين الضاد والظاء فلا يخطيء من يجعل هذه في موضع هذه...»

وهذا نص قاطع من مصدر لغوي كبير على عدم ضرورة التفريق بين الحرفين، وهو يمنحنا حرية التصرف في كتابتهما دون الخوف من التخطئة او الاعمام بالمرطقة.. وينبغي مع ذلك مراعاة عدم الاشتراك في الحالات القليلة التي تتشابه فيها مفردتان لفظاً وتختلفان كتابة. وفيها مثلاً : يظفر بمعنى ينتصر ويضفر اي يفشل ويلوي، ومنه الضفيرة للشعر، ورغم ان المفردتين

غير متماثلتين تماماً لأن الأولى مفتوحة العين والثانية مضمومة فمن الأفضل تمييزهما بالكتابة رفعاً للالتباس، وفي هذه الحالات القليلة أيضاً : ظل بمعنى بقي وضم بمعنى زاع وانحرف ومرعاة الفرق في كتابتهما لازمة لمنع الالتباس، وإن كنت أفضل لو استغنى الكتاب عن (ظل) واستعملوا بدلها : بقي، مكث، ثوى، لبث...

تحت طائلة الإزهاب النحوي يضطر الكتاب، لا سيما الصحفيين القليلي الخبرة إلى التزمّت في استنثار محصلهم اللغوي ويفوتون على انفسهم رُخصاً في اللغة كان القدماء لا يتورعون عنها، وهي الآن أكثر الخاسر ولننظر في بعض التفاصيل.

### النسبة الى الجمع

يزعم النحاة ان النسبة الى الجمع لا تجوز، فلا يصح عندهم ان نقول : المؤتمر العمالي او المظاهرات الطلابية بل المؤتمر العامي والمظاهرات الطلابية. ولا يجوز ان نقول : عقائدي بل «عقدي» نسبة الى عقيدة [ حيث يجب حذف الياء ! ]، وقد اضطرت جريدة واسعة الانتشار كالمفسر اللبنانية الى الوقوع في هذه الخذلقة فصارت تقول : الطالبية بدلا من الطلابية..

والنحاة يكذبون على اللغة كذباً صُراحاً. يدل على ذلك كثرة الاسماء التي وردتنا من العصور الاسلامية منسوبة الى جمع ومنها : الدوانيقي والقراطيسي والصناديقي، واصطلاحات من قبيل : شعوبي، وساعاتي وكتبي.. وهم يغفلون ايضا عن حقيقة الاختلاف في مدلولات المفرد والجمع والصيغ المختلفة للجمع. فمثلا كلمة : **جماهير** تحمل مدلولاً سياسياً يختلف عن مفردتها : **جمهور** والنسبة اليها تختلف ايضا، فعندما نقول : **جماهيرى** نعني شعبي واسع النطاق، وهو لفظ يساري المنشأ والمآل ولذلك يتحاشاه اليمين الا في المزايدات.. وعندما نقول : **جمهوري** فانما نعني النسبة الى «**جمهورية**»، ومن هذا القبيل كلمة **عامل**. اذا جمعت على عوامل افادت معنى الاسباب والمؤثرات واذا جمعت على **عمال** افادت معنى الطبقة العاملة، واذا جمعت على **عاملين** شملت مجموع الذين يعملون في مضمنا، ما او مؤسسة ما بصرف النظر عن موقعهم في الانتاج ؛ عمالاً ام اداريين ام تكنوقراط.. فاذا اخذنا باوامر النحاة حصرنا النسبة لكل هذه الحالات المتفاوتة في كلمة «**عاملي**» وهي لن تعني في الحقيقة غير النسبة الى جبل عامل الاقليم الشيعي المعروف الذي يتنافس العديد من زعماء الشيعة على اكمال تسليمه لاسرائيل.. وعلى ذكر التفاوت في مدلولات صيغ الجموع نقول انها توفر فرصاً طيبة لتوسيع وتنويع مدلولات المفردة الواحدة واشتقاق المصطلحات. وعلينا ان لا نتردد في استنثار هذه الميزة الهامة في لغتنا خوفاً من وعيد الفقهاء.

## نصب اسم لا النافية للجنس

المعروف ان اسم لا النافية للجنس يكون منصوباً في العادة، فاذا جاء مقترناً بصنعة وجب إلحاقها به في النصب. لكن التزام هذه القاعدة حرفياً يخالف الغرض من الاعراب وهو الأمن من الالتباس، لانه يؤدي الى الخلط بين النعت المنصوب وبين الحال، فاذا قلنا مثلاً « لا حل سياسيا لقضية فلسطين» ربما انصرف الذهن الى ان «سياسيا» منصوبة على الحال، ولذلك يجب عدم التقييد بالنصب واجراء العبارة على هذا النحو : «لا حل سياسي لقضية فلسطين» ويمكن قراءتها بالتسكين اسوة بالشواهد التي مرت بنا، او بالرفع على اعتبار ان «لا» تفيد النفي بوجه عام. وقد جرت العادة على كتابة امثال هذه الجمل بهذه الطريقة ومن دون حذفها، غير أن الحاجة النحويين فرضت على البعض اللجوء الى هذه الصيغة المنبسة التي تفتيح الآن في صحف بيروت

## التقييم والتقويم

كنت قد تناولت هاتين الكلمتين في «مواقف» وأرى من الضروري إعادة الخوض فيها لأنها كثيرة الورد في الصحافة والكتب.

يزعم النحاة ان كلمة «تقييم» خطأ ويوجبون استعمال «تقويم» بدلاً منها والكلمتان في الحقيقة مختلفتان تماماً. فالتقييم مشتق من القيمة والتقويم من القوام، ومعنى الأول التقدير والتثمين ومعنى الثاني التعديل. ان ما دفع النحاة الى هذا القول ان القدماء كانوا يقولون لمن يثمن ويقدر : «يقوم عليه الشيء بكذا» وقياسهم هنا صحيح. ومن المعروف ان القيمة اصلها : قومة فابدلّت باء لتسهيل لفظها. لكن هذا الأبدال في حد ذاته دليل مضاد لقياسات اهل النحو ؛ فاذا كان ممكناً جعل القومة قيمة فلماذا لا يمكن استقاق المصدر المزيد من المقلوب ؟ ان الاشتقاق من المشتق من الأمور الماشية في اللغة ومنه مثلاً : الصداقة اشتقت في الصديق وهو بدوره مشتق من الصدق. وهكذا فان التباس تقويم بمفهوم التعديل يوجب العدول عنه الى صيغة مشتقة من «القيمة» وهو اقل تعسفاً من جعل القومة قيمة. وبذلك تمتاز المفردتان ويكون لنا اصطلاح مستقل لكل من التعديل والتثمين.

يجب ان لا

لا يجب ان

يقول النحويون ان العبارة الأولى صحيحة والثانية خطأ، والحقيقة ان كليهما صحيحة وكلاهما تؤدي معنى لا تؤدي الأخرى، فقولنا «يجب ان لا يحدث هذا» هو ايجاب عدم الفعل، وقولنا : «لا يجب ان يحدث هذا» هو نفي للأيجاب وليس للفعل، فهو يفيد جواز الحدوث وعدمه وتوضيحه نضرب هذين المثالين :

1 - يجب ان لا يسهر المريض.

2 - لا يجب ان يسهر العالم.

في الأول إيجاب عدم السهر على المريض وهو وجوب يدخل في طبيعة المرض التي تقتضي عدم السهر لانه ينهك جسم المريض، وفي الثانية عدم الزام العالم بالسهر لانه يستطيع ان ينجز اعماله في النهار، ولو قلنا العبارتين فقلنا :

1 - يجب ان لا يسهر العالم.

2 - لا يجب ان يسهر المريض.

لوقعنا في خطأ، لأن الأول يستفاد منه منع العالم من السهر في حين ان طبيعة عمله لا تمنع من ذلك بل زبناً تقتضيه وكثير من العلماء ينتجون في الليل أكثر مما في النهار، وفي الحالة الثانية خيرنا المريض بين ان يسهر أو لا يسهر بينما تفرض عليه طبيعة المرض ان لا يسهر وكأننا افترضنا ان المريض يحتاج الى السهر لكننا تساهلنا معه فخيرناه بين الحالتين.

مثل هذه الفروق الدقيقة في التعابير لا يدركها النحاة لان اذهانهم متكلسة بالقواعد التي اخترعوها بانفسهم. وهم باصرارهم على هذا الجمود المقتنض يضيقون آفاق اللغة ويحدون من قدرتها على التعبير. وعندما يضطر الكتاب الى مراعاة أمزجة النحويين فانهم لا يفقدون فقط حرية الكتابة بل والدقة في التعبير.

\* \* \*

من هنا لا يمكن اخذ اللغة من النحاة واللغويين وانما هي تؤخذ من الممارسة، مع تعلم الحد الأدنى من القواعد، وهو الحد الضروري للتمكن من صياغة الجمل على الوجه المفهوم المانع من الالتباس ويقتضينا ذلك قراءات موسعة للنصوص بدلاً من الانهماك في دراسة علم النحو... ولننظر في هذين المقتطفين لترى مدى الدقة التي يتكلم بها ذوو الاختصاص من القدماء وهما من كتاب «المواقف» للابن جني، الذي يشتمل على موسوعة فلسفية ترجع الى القرن السابع الهجري..

1 - حول العلاقة بين المادة والحادث (الشيء الذي يحدث ويتشكل)

«ان الحادث تارة يوجد عن تلك المادة كالأعراض، وتارة يوجد فيها كالصور وتارة يوجد معها كالنفوس الناطقة.»

2 - حول اشكال الوحدة

«الوحدة تنوع، ولكل نوع منها اسم ؛ ففي النوع ممثلة، وفي الجنس مجانسة وفي الكيف مشابهة وفي الكم مساواة، وفي الشكل مشاكلة، وفي الوضع موازاة وفي الاطراف مطابقة..»

ان قراءة مثل هذه النصوص كلا في حقله المخصوص اجدى من دراسة كتب النحو التي تعلم الناس القواعد وتعلمهم تحرسا في عين الوقت. وقد وجدت مصداقا لذلك عند اقامتي في الصين حيث لاحظت معظم الصينيين الذين تخصصوا في العربية يعرفون النحو اكثر من اي مثقف عربي لكنهم لا يستطيعون كتابة جملة واحدة صحيحة. ويرجع ذلك الى انهم درسوا العربية على يد اساتذة اللغة من العرب وفقا لمنهج التدريس المتبعة في مدارسنا وجامعاتنا فجاءوا حفاظا من الطراز الأول !

يتصل بما ذكرناه عجز بعض الكتاب والمترجمين عن الكتابة العلمية السليمة واثابهم الحديقة والتشبيث باهداب النحو على حساب التعبير المكثف الدقيق، من طراز ما قرأناه للانجي. وفيما يلي وقائع من التخطيط استعرضها دون الاشارة الى اصحابها لأنني لا اتوخى التشنيع على احد:

في كتاب فلسفي مترجم ورد :

1 — الكهروكيميائية . يقصد الكهروكيمياء لكن المترجم يخاف من النحت فاكتفى بحذف الهزمة حتى لا يثير عليه اللغويين فجاء اصطلاحه سمجا ثقيلًا.

2 — ترجم Contingent الى جائز و Nécessaire الى ضروري وكان عليه ان يرجع لمصطلحات الفلسفة العربية فيجد : الممكن بدلاً من الجائز والواجب بدلاً من الضروري ولا يكلف نفسه استحداث مصطلحات غير دقيقة في قضايا ناجزة ومع وجود لغة فلسفة متبلورة.

3 — ولنفس السبب استعمل الكاتب نفسه اصطلاح «ظاهر» بدلا من «عَرَض» الذي مشت عليه الفلسفة الاسلامية واكتسب من خلالها شخصية الاصطلاح التمييز والمعبر عن طبيعة الموضوع المتعلق به.

ينبغي ان اذكر ان هذا الشكل من التخطيط يرجع من جهة الى ان مترجمي الفلسفة المعاصرة لم يقرأوا الفلسفة القديمة، ومن جهة أخرى الى عدم استعمالهم المعاجم المتخصصة وهي كثيرة منها عند القدماء : «التعريفات» للجرجاني، «مفاتيح العلوم» للخوارزمي، و «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي وهو موسوعة ضخمة في المصطلحات العلمية والفلسفية القديمة. ومن الكتب الحديثة المعجم الفلسفي ليويسف كرم، صغير، و «المعجم الفلسفي» لجميل صليبا ويقع في مجلدين كبيرين استوفيا معظم المصطلحات الفلسفية القديمة و الحديثة.

في كتاب مترجم آخر يرد :

ظاهرة المفارقة الظاهرية.

وها هنا التباس. فالظاهرية تختلط بظاهرة، وكان على المترجم ان يأتي بمردف لاحديهما فيقول مثلاً : حالة المفارقة الظاهرية، لكن الكتاب مولعون بتديد مصطلح «ظاهرة» واطلاقها جزافاً على احدث وأحوال وواقعات قد لا تتضمن بالضرورة مفهوم الظاهرة.

وعاني الكتاب تحطاً في المفردات لعدم ترسهم في القاموس وتطبيقاته، وقد اظهروا في هذا الجانب فقراً مدقفاً في فقه اللغة. فهم مثلاً يفرقون عند الترجمة من اللغات الأوربية بين الانسان والرجل فيترجمون كل : Man الى رجل. ومن المعروف ان في اللغات الأوربية لفظاً واحداً يدل عليهما، وهو انعكاس للمرحلة الأيوبية الناجزة التي نشأت فيها اللغات الأوربية، والعربية تفرق بينهما والمطلوب من المترجم ان يعرف قصد الكاتب الاجنبي من السياق ليحدد اذا كان يريد انسان ام رجل ؟

ومن فقرهم في فقه اللغة انهم لا يعرفون من اسماء الزمن الا كلمة واحدة هي العصر، التي يستخدمونها دون اعتبار الفرق في المدة، فيقولون : العصر الجليدي لزمن يمتد ألوف السنين والعصر الأموي لزمن لا يزيد على تسعين عام. وهذه بعض مفردات الزمن :

الدهر، وهو مجموع ازمة طويلة : الامد للزمان الطويل، البرهة للزمان انطويل ايضاً، الحقبة لما يقارب مئة عام، الأوان والحين والمدة والوقت مرادفات عامة للزمن ويختص الوقت غالباً بالايام والساعات.

وفي التطبيق يمكن القول :

الدهر الجيولوجي الفلاني، الامد الحجري، البرهة الفرعونية، الحقبة السومرية. العصر الاسلامي، الأوان الفكتوري... الخ

ويمكن القول :

اوان محمد او المسيح او كونفوشيوس، عصر الاستعمار، زمن الردة... الخ

ولا يستخدم الكتاب من مفردات عمر الانسان غير ثلاثة للذكور هي : طفل، شاب، وشيخ وغير ثلاثة للإناث هي طفلة، شابة، وعجوز، بينما تتعدد الاسماء، بتعدد اطوار النمو، فنجد للذكور :

جنين (مشترك)، وليد، رضيع، طفل، صبي، يافع، غلام، فتى، شاب، كهل، شيخ، مسن، معمر، يقن..

— وللإناث

مؤنث الاسماء من وليد الى يافع ثم كاعب (مرادف ليافع)، فتاة، مؤنث شاب، مؤنث كهل، عوان، عجوز، حيزون...

ويرد الكتاب كلمة «عملية» كما يرددون «ظاهرة» مهما كانت طبيعة الحدث. وقد قرأت في إحدى الصحف : مشهد من عملية تشييع، والتشييع حادثة أو إجراء وليس عملية، وهو لا يحتاج الى وصف يقيده وإنما يكفي ذكره وحده للدلالة على طبيعته.

ولا يعرف الكتاب كيف يصوغون عبارة دالة على المعنى دون حشو. وقد تعودوا ان يردفوا معظم الجمل الفعلية بكلمات : قام، جرى، أو تم... ولننظر في هذا المثال :

قام الدكتور فلان بتحقيق وشرح الديوان وطبع في باريس.

وهي عبارة يمكن ايجازها بالشكل التالي :

طبع الديوان في باريس بتحقيق وشرح الدكتور فلان.

ومن امثلة الاطناب والحشو :

لقد شاهدت ثلاثة عرافين من عرافي النقدية التجريبية.

وكان يمكن ان تكون :

لقد شاهدت ثلاثة من عرافي التجريبية — النقدية.

ويبلغ بهم العجز عن الايجاز حد القول :

كونفوشيوسيون وياكونيون.

بدلاً من : كونفوشيون باكونيون.

وانظر الى هذه العبارة :

تعلم — فلان — الهندسة والرياضيات تعلماً اصولياً وتعلم علم الاقتصاد تعلماً ذاتياً وكان يكفيه ان يقول :

تعلم الهندسة والرياضيات في المدرسة وتعلم الاقتصاد بنفسه.

وللكتاب ولع بياء النسبة يجعل سطورهم محشوة بالسجع المتكلف. ولنقرأ :

قيادة سوفيتية مستقبلية.

التعرف على المذات المدينية.

عرض الامر على اللجنة التحكيمية.

وهي في اللغة السليمة :

قيادة سوفيتية مقبلة او لاحقة او مستقبلية (مستقبلية اصطلاح فلسفي يطلق على مذهب برجوازي يريد أن يكون بدلاً عن الماركسية).

التعرف على ملذات المدينة — او المدن —

عرض الامر على لجنة التحكيم.

ولنقرأ هذا العجز الفاضح :

التأويل خاصة عامة للكائن البشري.

وهو يقصد :

التأويل ميزة مشتركة للانسان.

ومن مرادفات ميزة : صفة، سمة، خصلة، سحجة، خصيصة.. بينما تبدو كلمة «خاصة» هنا ضداً لكلمة عامة التي جعلها الكاتب صفة، وينبغي ان يلاحظ ان هذه المفردة تكتسب دلالتها على الميزة والسمة والصفة عندما تكون في حالة جمع فقط (خواص) وقد تحدثت في بند سابق عن الدلالات المستقلة لصيغ الجموع في العربية.

\* \* \*

في العمامة مفردات فصيحة مستعملة بنوامها او محرفة قليلا، وقد دأب الكتاب على استبعاد كل كلمة من هذا القبيل حتى لو كانت من مفردات القاموس بتأثير الاستقرائية اللغوية التي سرت اليهم من اللغويين. ومن امثلة هذه :

كلمة : راهي في العمامة العراقية، وتعني الواسع المتمكن والكبير وهي مرادف دقيق لكلمة Large في الانكليزية. وهذه الكلمة فصيحة. ورد في اساس البلاغة للزمخشري : جاء فلان راهيا راهيا، وقد اشتق منها العوام : رهاوة بمعنى السعة والتمكن.

فعل : حط يحط بمعنى وضع يوضع ومفعوله : محطوط وهي عامية مشتركة في الكثير من اللهجات العربية، لكن الكتاب يستنكفون منها ويقعون بسبب ذلك في الالتياس والعوز. ففي مقابل Large يضعون واسع او كبير بينما الصحيح، راهي، وتحدثون عن الشيء الذي يوضع في مكان ما فيقولون : موضوع في كذا فيختلط باصطلاح موضوع الذي يستخدم في المنطلق مقابل المحمول وفي الكتابة بمعنى قضية او مضمون حيث يقال : موضوع البحث، ومنه اشتقت : موضوعية لروح العلمية النزبية في البحث، كما اعتبرت صفة لما هو خارج عن وعي الانسان حيث نقول : الذاتي والموضوعي، ونقول : المثالية الموضوعية مقابل المثالية الذاتية للمدرسة المثالية التي تقر بوجود الواقع لكنها تقول باولية الروح.. وللخلاص من هذا التلايس يمكن للكاتب ان يقول : الشيء المحطوط في كذا.

وأرجو أن تكون هذه الامثلة اليسيرة منطلقا للممارسة في هذا المضمار.. ويبقى الامر في كل الاحوال رهنا بالخروج من دائرة الازهاب اللغوي حتى يمتلك الكتاب حرية الكلام التي صادرها اللغويون منهم...